الاتحاد العربي للمدارس الخاصة
Arab Private Schools Federation

# صرخة يقظة

## اللغة العربيّة على مفترق طرق

زاحم ساحات الجهل والباطل، يرجى نشر ما تقرأ من علم وحق، ولا تصمت صوتك في الحق

360 KNO SMART SCHOOLING
ADVANCE THROUGH TECHNOLOGY

unicef

UNESCO
United Nations Educational, Scientific and Cultural Organization

GenEx
Generational Education Exchange

تمكين TAMKEEN

UNIVERSITY OF VICTORIA
LONDON - UK

AMIEE
American International Education Federation

د. خميس بن عبيد العجمي
رئيس الاتحاد العربي للمدارس الخاصة
رئيس مجلس أمناء مدارس كينو الخاصة بسلطنة عمان

رَجَعتُ لِنَفسي فَاتَّهَمتُ حَصاتي ... وَنادَيتُ قَومي فَاحتَسَبتُ حَياتي
رَمَوني بِعُقمٍ في الشَبابِ وَلَيتَني ... عَقِمتُ فَلَم أَجزَع لِقَولِ عُداتي
فَيا وَيحَكُم أَبلى وَتَبلى مَحاسِني ... وَمِنكُم وَإِن عَزَّ الدَواءُ أُساتي
أَرى لِرِجالِ الغَربِ عِزّاً وَمَنعَةً ... وَكَم عَزَّ أَقوامٌ بِعِزِّ لُغاتِ

هكذا نعت اللغة العربية أبناءها في قصيدة خالدة لحافظ إبراهيم، تلك الصرخة المدوّية التي اخترقت أسماع التاريخ لتصل إلينا اليوم أشدّ وقعًا وأعمق ألمًا، فما زالت كلمات شاعر النيل تتردّد في أذهاننا كنبوءة تحقّقت، وكأنّها صرخة يقظة تهزّ ضمائرنا الغافلة.

ففي زمن سمته تسارع التقدّم التكنولوجيّ، وتصاعد موجات العولمة الثقافيّة، تقف اللغة العربية اليوم على مفترق طرق حاسم، وفي لحظة تعدّ من اللحظات الفارقة في تاريخ الأمة، لحظة تستوجب منّا وقفة صادقة مع الذّات، ونظرة عميقة في مرآة الواقع المؤلم الذي يستنزف لغة الضّاد شيئاً فشيئاً.

فها هي ذي صرخة حافظ إبراهيم على لسان العربية تفارق أيقونة الشكوى الشاعرية، لتغدو انعكاسًا لواقع مرير نعيشه اليوم، فاللغة التي أنجبت حضارة وأضاءت دروب المعرفة لقرون، تجد نفسها اليوم تتساءل بحرقة: أين أبناؤها؟ أين من نشأوا في أحضانها وترعرعوا على كلماتها؟

فلو تأمّلنا في المشهد التعليميّ العربيّ اليوم، لصدمنا بأرقام تحبس الأنفاس وتوجع القلوب من جهة، إذ شهدت العشرون سنة الماضية تراجعًا مهولًا في مكانة اللغة العربية، فكان هناك ارتفاع في نسب الالتحاق بالمدارس الدوليّة في دول الخليج بشكل مذهل، هذا وقد كشف تقرير تعليميّ حول صناعة التّعليم في دولة الإمارات ومنطقة دول مجلس التّعاون الخليجيّ أنّ 97% من المدارس الخاصة التى تحتضنها الإمارات هي مدارس دوليّة، إذ يبلغ إجمالي عدد المدارس 643 مدرسة خاصة ما يجعلها تعتبر ثاني أعلى دولة تحتضن المدارس الدولية عالمياً، بعد الصين.

ومن جهة أخرى فقد ظهرت أرقام أكثر إيلامًا تأتي من نتائج اختبارات PIRLS لعام 2021، التي كشفت أنّ 70% من طلبة الصف الرابع في العالم العربي يقعون دون المستوى الأساسي في القراءة بالعربية، فمن الممكن عدّ الأرقام هاهنا صرخة استغاثة من جيل كامل يكاد يفقد الصّلة بلغة أجداده.

فلو نظرنا لأوضاع اللغة العربيّة في الدول العربية، فسنجد في المغرب مثلًا أنّ 65% من المواد العلمية تدرّس في المدارس العموميّة بالفرنسيّة، وفي الإمارات تقدّم 92% من الجامعات برامجها بالكامل بالإنجليزية، أمّا في لبنان، فإنّ 78% من الطلبة يجيدون الفرنسيّة والإنجليزيّة أفضل من العربيّة، فهنا مفارقة مؤلمة بأنْ يصبح أبناء العرب غرباء عن لغتهم في عقر دارهم.

ومن زاوية أخرى وجهة ثالثة لهذه الأرقام المخيفة، ففي سوق العمل، تشترط 85% من الشركات العربية إتقان الإنجليزية للتوظيف، بينما تصل الفجوة في الرواتب إلى 40% لصالح المتحدثين بالإنجليزية، فيا لها من معادلة قاسية تربط بين الرزق واللغة، وتجعل من إتقان العربية ترفًا لا ضرورة اقتصادية.

ومن زاوية رابعة فقد كشفت إحصائيات التعليم العالي عن مأساة حقيقية في أروقة الجامعات العربية، إذ شهدت العقود الأخيرة تراجعًا مخيفًا في الإقبال على تخصّص اللغة العربية، ففي الجامعات السعودية، انخفضت نسبة المسجّلين في تخصّص اللغة العربية من 18% عام 2003، إلى 7% عام 2023، بينما ارتفعت نسبة المسجّلين في تخصّصات اللغة الإنجليزية إلى 31% في الفترة ذاتها، وفي مصر، تشير بيانات وزارة التعليم العالي إلى أنّ كليّات الآداب وخاصّة قسم اللغة العربية قد سجّل أدنى معدّلات التحاق بنسبة 4% فقط من إجمالي الطّلبة، في مقابل 23% لكليّات اللغات والتّرجمة، فهذه الأرقام المؤلمة تعكس أزمة ثقة عميقة بين الشّباب العربيّ ولغتهم، وتنبئ بمستقبل قاتم إذا لم نتحرّك بسرعة لعكس هذا الاتّجاه المدمّر.

فمن قلب هذه المشاهد الرقميّة والإحصائيّة المؤلمة، تبرز مفارقة عجيبة، فبينما لا تتجاوز مفردات اللغة الفرنسيّة 150 ألف كلمة، والروسيّة 130 ألف، والإنجليزية 600 ألف كلمة، تحتوي اللغة العربيّة على12 مليون كلمة دون تكرار، و16 ألف جذر لغويّ، ممّا يجعلها الأولى عالميًّا من حيث دقّة المعاني والثراء اللغويّ.

فهي لغة القرآن الكريم التي نزل بها ، فقد قال تعالى:(إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)(يوسف: 2)، وهي لغة حملت حضارة امتدّت لقرون، وأنتجت علومًا وفنونًا وآدابًا أثرت الإنسانيّة جمعاء، فأنّى لنا أنْ نقبل بأنْ تصبح هذه اللغة العظيمة مجرّد متحف بانورامي للماضي بدل أنْ تكون منصّة انطلاق نحو المستقبل؟

فما قضية تراجع اللغة العربيّة بالأمر الذي يناط بمجالات التّعليم والثّقافة وحسب، بل هي أزمة وجوديّة تمسّ صميم الهويّة العربيّة وتضربها في الجذور، فقد كشفت إحدى الدراسات أنّ 55% من الشباب العربيّ يشعرون بفجوة عميقة بين هويّتهم الثقافيّة ولغة تعليمهم، ممّا يخلق حالة من التشظّي النفسيّ والاغتراب الداخليّ، فعندما يفقد الإنسان لغته، فإنّه يفقد جزءًا من روحه، فاللغة ليست مجرّد أداة تواصل، بل هي وعاء الفكر والشعور، ومستودع الذاكرة الجماعيّة، وهي الجسر الذي يربط بين الماضي والحاضر، وبين الفرد ومجتمعه، وبين الروح والكون.

هذا ويعدّ من أخطر التحدّيات التي تواجه هويّتنا الثقافيّة والفكريّة ظاهرة تدنّي مستوى الاهتمام باللغة العربية في المؤسّسات التعليميّة، إذ إنّ هناك عددًا من العوامل المتعدّدة التي تتضافر لتخلق هذا الواقع المؤلم، فعلى المستوى التربويّ، نجد أنّ طرائق التدريس التقليديّة ما زالت هي المهيمنة، ممّا يقود لاختزال تعليم العربية في حفظ القواعد النحوية والصرفية دون ربطها بالممارسة العملية التطبيقيّة، وهذا يدفع الطلبة للتّعامل معها بوصفها مادة جامدة منفصلة عن واقعهم، كما أنّ ضعف إعداد المعلمين وافتقارهم للأساليب الحديثة في التدريس وقلّة الموارد التعليميّة المبتكرة والتفاعليّة، يساهمان في تعميق الفجوة بين الطالب ولغته الأم.

وعلى المستوى الثقافيّ والاجتماعيّ، تواجه اللغة العربيّة منافسة شرسة من اللغات الأجنبيّة التي تُقدّم كرمز للحداثة والتقدّم، بينما يُنظر للعربيّة أحيانًا كلغة تراثية لا تواكب متطلّبات العصر، وهذا المفهوم الخاطئ ينعكس على دافعيّة الطلبة وحماسهم لتعلّمها، ناهيك عن أنّ غياب الممارسة الفعلية لها في البيئة المحيطة، سواء في الإعلام أو وسائل التواصل الاجتماعيّ أو حتّى في المنزل يضعف من قدرة الطلبة على استيعابها وتطبيقها.

فهذا التراجع في الاهتمام باللغة العربية لا ينعكس على ضعف مهارات التعبير والكتابة الإبداعيّة لدى الطلبة وحسب، بل يمتدّ ليشمل عجزهم عن فهم تراكيب النحو والصرف وتوظيفها في سياقاتها الطبيعيّة، ممّا يخلق جيلًا منقطعًا عن جذوره اللغويّة والثقافيّة، غير قادر على التّواصل الفعّال بلغته الأم أو الإبداع من خلالها، وهو ما يهدّد في النهاية ثراء الهويّة العربيّة وقدرتها على الاستمرار والتطوّر في عالم متغيّر.

إلّا أنّ هذا ليس هو المآل الأخير الذي نرجوه للغة عظيمة كاللغة العربيّة، فما يزال هناك بصيص أمل يلوح في الأفق، يتمثّل في مبادرات جادّة لإحياء اللغة العربية وتطويرها، ومن أبرز هذه المبادرات والتّجارب المضيئة...

تجربة سلطنة عمان، إذ تشرق شمس الأمل فيها عبر مبادرة "نجم القراءة" التي تُعدّ من أنجح التجارب العربيّة في إحياء شغف القراءة باللغة العربية، فهذه المبادرة الرائدة التي انطلقت برؤية حكيمة، استطاعت أنْ تحوّل القراءة من واجب مدرسيّ ثقيل إلى متعة حقيقيّة ونشاط محبّب لدى الطلبة، هذا وقد حقّقت هذه المبادرة نتائج مبهرة في رفع مستويات الفهم والاستيعاب، وأعادت للكتاب العربيّ مكانته في قلوب الأجيال الناشئة، فهذه التجربة العمانيّة تثبت أنّ الإرادة الحقيقيّة والتّخطيط المدروس قادران على إحداث نقلة نوعيّة في علاقة الشّباب بلغتهم الأم.

تجربة دولة الإمارات العربيّة المتحدة، التي وصلت لمستويات إقليميّة من خلال"تحدّي القراءة العربيّ" والذي يعدّ أضخم مشروع عربيّ لتشجيع القراءة باللغة العربية، إذ يشارك فيه سنويًا أكثر من 22 مليون طالب وطالبة من 44 دولة عربيّة وأجنبيّة، وهذه المبادرة النوعيّة لم تكتفِ بزيادة معدّلات القراءة فحسب، بل أحدثت تحوّلًا جذريًا في النظرة المجتمعيّة للكتاب العربيّ، فقد ارتفعت مبيعات الكتب العربيّة في الدّول المشاركة بنسبة 35%، وازداد عدد المكتبات العامّة بنسبة 28%، كما تحسّنت درجات الطّلبة المشاركين في اختبارات القراءة والفهم بمعدل 42%، محقّقة بذلك ثورة هادئة تعمل على إعادة تشكيل الوعي العربيّ وزرع بذور المعرفة في تربة خصبة من الشّغف والمحبّة.

مبادرة قطر "بالعربي"، وهي مبادرة جديدة تحتفي باللغة العربية بكلّ ما تحمله من ثقافات وأفكار، وتهدف إلى تعزيز أصوات الناطقين باللغة العربية ونشر قصصهم وأفكارهم، وخلق مساحة تدعم الأصوات من العالم الناطق بالعربية.

مبادرة " التّنال العربيّ" التي برزت كمنارة هداية في ظلمات الإهمال اللغويّ، وغدت جسرًا نحو النّهضة اللغويّة، فهي مشروع حضاريّ نبيل مهده الأردن، وتحت إشراف الدكتور عبد الرؤوف زهدي مصطفى، وبدعم نخبة من خبراء اللغة العربية الذين آمنوا برسالة المبادرة السامية، وفكرتها أنّ "التّنال" شهادة الكفاءة الدوليّة في اللغة العربيّة، وهي اختبار معياري عالميّ يُقاس من خلاله إتقان اللغة العربيّة للنّاطقين بها وللناطقين بغيرها، وفق الإطار المرجعي الأوروبي المشتركCEFR))، فرؤية "التّنال" تتجاوز مجرّد قياس للكفاءة اللغويّة، لتصل إلى هدف أسمى وأعمق ألا وهو معالجة الضّعف اللغويّ الذي استشرى في صفوف الناطقين بالعربية أولًا، ثم النهوض بتعليمها للناطقين بغيرها، عبر منهجية علمية موضوعية تتسم بالشفافية والدقة.

فضلًا عن أنّ ما يميّز "التّنال" عن شهادات الإتقان الأخرى كالتوفل والآيلتس، هو إضافته لمهارة خامسة فريدة تشمل القواعد الوظيفيّة والصرف الوظيفيّ والإملاء والترقيم ومعالجة الأخطاء الشائعة، إلى جانب المهارات الأربع التقليدية: الاستماع والتحدث والقراءة والكتابة، فهي نظرة شموليّة تعكس عمق اللغة العربيّة وخصوصيّتها الحضاريّة، فالهدف الأسمى لهذه المبادرة "تعريب الشارع العربيّ؛ عينًا ويدًا ولسانًا"، بإعادة الروح العربيّة إلى حياتنا اليوميّة، فتصبح العربية لغة الحياة لا لغة المناسبات، لغة العلم لا لغة التراث فحسب، لغة المستقبل لا ذكرى الماضي.

وبعد،

فإنّ إنقاذ اللغة العربية يتطلّب تكاتف الجهود على المستويات كافّة، فعلى مستوى السّياسات التعليميّة، نحتاج إلى وضع اختبارات معياريّة لمعلّمي اللغة العربية عند التعيين، على غرار اختبارات التوفل والآيلتس، لضمان كفاءتهم اللغوية والتربوية، وضرورة إعادة النظر في أنظمة الرواتب والحوافز، فمن المحزن أنْ تكون رواتب معلمي اللغة العربية أقلّ من غيرهم، ممّا يرسل رسالة خاطئة حول قيمة هذه اللغة، والعمل على تطوير مناهج عصرية تجمع بين أصالة اللغة وحداثة الطرح، وتستفيد من التقنيات الحديثة في التعليم والتعلم، وعلى المستوى المجتمعيّ، فإنّنا بحاجة لحملات توعية شاملة تعيد للعربية مكانتها في قلوب أبنائها، فكما قال ماكس مولر "إنّ اللغة والفكر كقطعة نقدية واحدة، وجهها الأوّل هو الفكر، ووجهها الثاني اللغة، فإذا فسد أيّ وجه من الوجهين فسدت القطعة، فالفكر بالنسبة للغة كالروح للجسد"، واللغة للفكر وعاء، فلن يفيض الوعاء إلا إذا حوّلناه إلى منصّة انطلاق لا متحف للماضي.

إذًا، فنحن هاهنا في معركة لأجل اللغة، ولكنّها ليست معركةً ضدّ اللغات الأخرى، فالعالم متعدّد الثقافات واللغات، وهذا التنوع ثراء للإنسانية، والاختلاف فيه اتّفاق وائتلاف، لكنّها معركة وجود لضمان أنْ تكون العربيّة لغة حيّة تُنتج المعرفة ولا تستهلكها فقط، لغة تواكب العصر ولا تتخلّف عنه، لغة تحمل الهويّة ولا تتخلّى عنها.

لذلك يكمن نجاح هذه المعركة في التّحالف الثالوثيّ بين الحكومات التي تضع السياسات الداعمة، والتّقنيّين الذين يطوّرون الأدوات العصرية، والمجتمع الذي يعتّز بهويّته ولغته، فهو تحالف بين العقل والقلب، بين الأصالة والمعاصرة، بين الماضي العريق والمستقبل المشرق، فاللغة العربيّة ليست مجرّد كلمات وحروف، بل هي روح أمّة وذاكرة حضارة ونبض قلب لا يزال يخفق بالأمل، وطالما في قلوبنا بقيّة حبّ للغة العربيّة وإيمان برسالتها، فإنّ الأمل لن ينطفئ، والنّهضة آتية لا محالة، واللغة العربيّة ستعود لتأخذ مكانها اللائق كنور في مستقبل الأجيال...